الحضارة الإسلامية وأثرها في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية

أولاً: أثر الحضارة الإسلامية في الحياة السياسية:

وضع الإسلام الأسس العامة للدولة. ولم يتعرض في كثير من الأحوال للتفاصيل، وكان من جراء ذلك أن تطورت نظم الحكم والإدارة والتشريع في الدولة الإسلامية حسب الظروف التاريخية ومقتضيات المجتمع وتقاليد الأمم التي دخلها الإسلام،ولكن في إطار أحكام الإسلام ومبادئه الأساسية، ومن ثم حظيت الحضارة الإسلامية بنظم ووظائف ومراسيم تطورت إلى درجة رفيعة من الدقة والتنسيق، ومن أهم هذه النظم وأكثرها شمولاً الخلافة والإمارة والوزارة وإدارة الدواوين والقضاء والجيش.

الخـــلافة

اشترط الفقهاء للخلافة أربعة شروط يجب أن تتوفر في الخليفة هي العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس. وكان يتبع الخليفة مباشرة عدد من الخطط الدينية والوظائف الكبرى: وهي الصلاة والفتيا والقضاء والحسبة. وكانت تجب له طاعة المسلمين وسائر رعيته. وكان للخلافة علامات ثلاث هي: البردة والخاتم والقضيب. أما شارتها فكانت ثلاثاً أيضاً: وهي الخطبة والسكة والطراز.

ولم تكن الخلافة وراثية إلى أن جاء معاوية فجعلها وراثية في أسرته، وذلك حين حاول الخليفة ا لأموي معاوية أن يحصل على البيعة لابنه

يزيد، وظلت وراثية من ذلك الوقت، غير أن الخليفة كان لابد من أن يبايعه المسلمون[١].

الوزارة

عرفت وظيفة الوزير بصفة غير رسمية عند العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام، إذ كان العرب قبل الإسلام يسمون أبا بكر وزير النبي، وكذلك كان شأن عمر مع أبي بكر، وشأن علي وعثمان مع عمر. وفي عصر بني أمية تلقب بالوزير زياد بن أبيه في عصر معاوية.

غير أن وظيفة الوزير بدأت تتحدد معالمها في العصر العباسي، إذ صار الخليفة العباسي يستعين في إدارة شؤون الدولة وتصريف أمورها والإشراف على دواوينها وإعداد مكاتباتها وتنظيم أموالها بموظف أطلق عليه لقب وزير. ويبدو أن منصب الوزير في العصر العباسي تطور عن منصب الكاتب في العصر الأموي[٢].

وهناك نوعان من الوزارة هما: وزارة التفويض، ووزارة التنفيذ ويختلف النوعان من حيث السلطات والشروط. فمن حيث السلطات يجوز لوزير التفويض دون وزير التنفيذ مباشرة الحكم والنظر في المظالم وحق تفويض الولاة والانفراد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب والتصرف في أموال بيت المال.

---

(١) د/ حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، ص ٣٣.

(٢) نفس المرجع، ص ٤٠.

ومن حيث الشروط يشترط في وزير التفويض دون وزير التنفيذ: الحرية والإسلام والعلم بالأحكام الشرعية والمعرفة بأمري الحرب والخراج. أما فيما عدا ذلك فيستوي النوعان في باقي الحقوق والشروط.

الإمـــارة

كان نظام الحكم الإسلامي يقتضي أن يلي أمور المسلمين والٍ أعلى هو الخليفة، له حق الطاعة على الأمة كلها. وكانت البلاد الإسلامية تنقسم إلى أقطار أو ولايات يولي عليها ولاة يستمدون سلطانهم من الخليفة ويتبعونه. وظل هذا النظام سائداً في الدولة العباسية التي كانت تنقسم إلى عدة ولايات كان يولي على كل منها والٍ هو الأمير. وقد استخدم لقب الأمير للولاة في جميع الأقطار الإسلامية.

ومهمة الأمير هي النظر في أمور الدين في ولايته ولا سيما الصلاة وإمامتها، والإدارة والسياسة والحكم، والدفاع وإعداد الجيش وقيادته، والحكم والقضاء وتدبير الأموال. وينيب الأمير من يقوم عنه بأداء هذه الأعمال. وفي حالة تبعية الأمير للخلافة قد ينفرد بالإدارة المالية موظف مستقل عنه يكون مسئولاً مسئولية مباشرة أمام الخليفة يسمى العامل أو صاحب الخراج.

وعرف الأمير كاسم لوظيفة الوالي في غرب العالم الإسلامي، أي في بلاد الأندلس وشمال أفريقيا[1].

(١) د/ حسن إبراهيم حسن، النظم السياسية الإسلامية، ص ١١٣.

الكتـــابة

يطلق لفظ كاتب على كل من يقوم بالكتابة والتحرير. ومهمة الكاتب الكتابة بأشكالها المختلفة من انشائية وحسابية ومالية وغير ذلك. وقد اتخذ النبي ﷺ كتاباً يكتبون له القرآن والوثائق المختلفة كالمكاتبات التي كان يرسلها إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام والعهود والمعاهدات. ومنذ ذلك الوقت صار للخلفاء كتاب من ذوي العلم والمعرفة الملمين بالكتابة. وفي عهد عمر عين لكل ولاية إسلامية كاتب. وكانت مهمة الكاتب تحرير الرسائل والأوامر، ولما انشئت الدواوين اتسعت أعماله فشملت حساب الديوان وأسماء الجند وأعطياتهم(١).

وقد وجد في عصر الخلفاء الراشدين وصدر بني أمية ثلاثة أنواع من الكتبة:

كتبة الرسائل، وكتبة ديوان الجيش، وكتبة المال والجبايات وزادت أنواع الكُتَّاب إلى خمسة ظلت موجودة في العصر العباسي وهم: كاتب الرسائل، وكاتب الخراج، وكاتب الجند وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي، وكان أعلاهم كاتب الرسائل.

واحتل الكاتب مكانة رفيعة في العصر الأموي حتى سُمي بلقب مشير، وزادت مكانة الكاتب في العصر العباسي حتى لقب بالوزير.

وكان الكُتَّاب في الولايات يسيرون على نهج كُتَّاب الخلافة الإسلامية. وكان الكتاب ينقسمون في الولايات إلى قسمين كتاب الرسائل وكتاب الخراج.

---

(١) د/ حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، ص ٤٨ ـ ٤٩.

الحجـــابة

عرفت الحجابة في مكة قبل الإسلام، وكانت تعني حراسة الكعبة وحفظ مفتاحها.

وعرفت الحجابة في الإسلام، إذ أصبح «الحاجب» يطلق على من يقوم بين الوالي وبين الناس ويطلب لهم الإذن لمقابلته، وينظم الاتصال له، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون على صلة وثيقة به. واستمرت وظيفة الحجابة في الدولة العباسية وزادت أهميتها وسلطتها تدريجياً.

وعرف الحاجب في غرب العالم الإسلامي حيث تطور مدلوله واختصاصاته، ففي أول الأمر كان الحاجب في الدولة الأموية بالأندلس يقوم بالوساطة بين الخليفة ووزارته، وأخذت سلطة الحاجب في الاتساع حتى أصبح أرفع شأناً، وصار يسمى بذي الوزارتين وصار يشرف على الشؤون المدنية والعسكرية، ثم زاد نفوذه حتى استبد بالأمر وسيطر على الخليفة، وبذلك صارت إليه أمور الدولة في أواخر الخلافة الأموية بالأندلس[1].

الدواوين

كانت الإدارة الحكومية في الدولة الإسلامية موزعة على عدد من الدواوين، وقد عرف الديوان في الدولة الإسلامية بمعنى السجل وصارت المكاتبات تكتب باللغة العربية في عهد عبد الملك بن مروان الذي أمر

(١) د/ جمال سرور، قيام الدولة العربية، ص ٣٩-٤٢.

بتعريب الدواوين. ومن ثم أطلق على الديوان الإدارة الحكومية التي تقوم بجباية الخراج والضرائب، وكان مكان الديوان في أول الأمر في المسجد ثم نقل إلى دار الأمارة أودار الوزير أو القصر.

وقد تطورت الدواوين وازداد عددها في الدولة الإسلامية وتنوعت نظراً لما وصلت إليه أنظمة الدولة من تخصص وتنظيم. وكان لهذه الدواوين رؤساء يسمون أصحاب الدواوين. وكان بكل ديوان كتاب وخزان وبوابون وأعوان. وكان يمد بالصحف والأوراق (القراطيس). ومن أشهر الدواوين ديوان الرسائل وديوان بيت المال وديوان الجند وديوان البريد وغير ذلك[1].

فقد لعب ديوان الرسائل دوراً مهماً في إداراة الدولة الإسلامية، ويرجع أصل هذا الديوان إلى وظيفة الكاتب الذي كان يقوم بكتابة الرسائل للولاة. وفي العصر العباسي زادت المكاتبات الإدارية زيادة دعت إلى تنظيمها وإسناد مهمتها إلى ديوان الرسائل، وكانت مهمته إنشاء صيغ الكتابات الرسمية وتحريرها. وكان رئيسه يلقب بصاحب أو رئيس ديوان الإنشاء. وعلى نمط ديوان الرسائل في عاصمة الخلافة الإسلامية قامت في الولايات المختلفة دواوين مماثلة تنظم المكاتبات الإدارية بين الولاية وغيرها من الولايات والبلاد الأجنبية.

أما ديوان البريد فيقوم بنقل الأخبار إلى الوالي وإخطاره بما يجد في ولايته، وكان من عمل البريد في العصر العباسي نقل الأخبار السرية،

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ٥٢ ـ ٧٢.

وكان يسمى القائم بنقل الأخبار بريدي، ويقال للمشرف على البريد أو صاحب البريد، وغير ذلك من المسميات[١].

القضـــاء

اعتبر القضاء في الوظائف الإسلامية من الوظائف الدينية المتصلة مباشرة برأس الدولة، وربما كان الاسم الرسمي للقاضي هو الحاكم. وكانت مهمة القاضي هي الفصل بين المتنازعين حسب الشريعة الإسلامية. وكان يقوم بها في أول الإسلام النبي ﷺ، ولما زاد عدد المسلمين ودخل الإسلام أقاليم كثيرة في الجزيرة العربية أسندت الوظيفة أيضاً إلى عدد من الصحابة. وفي خلافة عمر وضع للقضاء نظام محكم فعين القضاة للمدن في الدولة الإسلامية، وسنت لهم النظم والقواعد التي يجب عليهم اتباعها. وكان الخلفاء الراشدون يختارون القضاة من العلماء الملمين بأحكام الشريعة الإسلامية والمعروفين بتقوى الله وتحري العدل وغير ذلك من الصفات الحميدة. وزادت صلاحيات القاضي بعد ذلك بحيث أصبح مسئولاً عن الشرطة والمظالم والحسبة وبيت المال وغير ذلك من الوظائف الأخرى.

وظهرت في العصر العباسي وظيفة قاضي القضاة، وهو يطلق على كبير القضاة، وكان مقره عاصمة الخلافة، وهو يقوم بتعيين القضاة في سائر الولايات، وله حق الإشراف عليهم ومراقبتهم[٢].

---

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ٧٠-٧٢

(٢) نفس المرجع، ص ٦٥.

الشرطـــة

والشرطة هم الجنود المكلفون بالمحافظة على الأمن الداخلي، بمنع وقوع الجرائم والقبض على الجناة ، وعمل التحريات اللازمة، وتنفيذ العقوبة التي يحكم بها القضاة، وإقامة الحدود. وكان رئيس الشرطة يسمى صاحب الشرطة.

وظهرت وظيفة صاحب الشرطة في عهد علي بن أبي طالب، وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم وذوي العصبية.

ووضحت مهمة الشرطة في العصر الأموي وزاد تنظيمها وتنسيقها في العصر العباسي، إذ صار لكل مدينة شرطة خاصة تخضع لرئيس هو صاحب شرطة هذه المدينة، وكان صاحب الشرطة يتخذ له نائباً ومساعدين يسمون الأعوان. وكان الشرطة يتخذون أعلاماً خاصة ويلبسون زياً خاصاً، ويحملون مطارد وتروساً تحمل كتابات باسم صاحب الشرطة، ويحملون في الليل الفوانيس، ويصطحبون كلاب الحراسة. وكان صاحب الشرطة يولي أحياناً الإمارة، كما كان الأمير يولي الشرطة في بعض الأحيان بعد عزله من الإمارة.

وكان صاحب الشرطة يسهم في عصر الولاة في أعمال الحسبة والإشراف على ديوان الأوقاف وتنظيم مرتبات الجند(١).

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق ، ص ٧٢ .

الحسبة

نشأت وظيفة الحسبة في عهد المهدي نظراً لاهتمام العباسيين بجعل الشريعة الإسلامية أساساً لحكمهم. وكان المحتسب يختار من بين رجال الدين والقلم الملمين بأحكام الشريعة والأشداء في الحق وذوي الثقة والأمانة. وكانت اختصاصات المحتسب تشمل تأدية العبادات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،ومنع ما يتعارض مع القيم الإسلامية، والمحافظة على الأخلاق العامة، والمحافظة كذلك على صحة المواطنين وسلامتهم، ومنع ما يعكر الأمن.

وكان من عمل المحتسب النظر في الأسواق، والإشراف على الموازين والمكاييل، ومراقبة الأسعار، ومنع الاحتكار، ومراقبة التجار وأصحاب الحرف حتى يمنع الغش و التدليس[1].

النظام الحربي

كان جميع المسلمين القادرين في عهد الرسول والخلفاء الراشدين أفراداً في الجيش، فكان إذا دعي للجهاد خرج كل قادر على حمل السلاح، وكان النبي ﷺ والخلفاء الراشدون يولون لكل حملة أميرا وربما جعل للأمير نائب. وكان يفرض لجميع المسلمين عطاءات. وكان عمر بن الخطاب أول من سجل أسماء الجند وحدد أعطياتهم، وأطلق على هذا الديوان اسم ديوان الجند. وظل العنصر الغالب في الجند من العرب.

(١) نفس المرجع ، ص ٧٣ .

وتكون في العصر الأموي جيش أشبه بالجيش النظامي، واستمر الجند يحصلون على أعطيات في العصر الأموي إلى أن تحدد لهم مرتبات وأجور في العصر العباسي؛ إذ بلغ راتب الجندي في العصر العباسي ٩٦٠ درهما في السنة، علاوة على الطعام والمخصصات الأخرى.

وكان للأمويين أسطول بحري قوي ألقى الرعب في قلوب أعدائهم من البيزنطيين. وكان قائد الجيش يسمى أميراً[١].

(١) د/ فهمي شتا ، ظهور القوة البحرية الإسلامية، مجلة الدارة، العدد الأول ص ١٠٢ - ١١٥ .

الدبلوماسية والسفارات في الإسلام

كانت الدبلوماسية في الجاهلية مقصورة على إيجاد العلاقات الودية بين القبائل المجاورة ولغرض التجارة، وكانت تتم بالأسفار والانتقال والقوافل والتجارة وبالاجتماع في الأسواق ومواسم الحج، وأشهر العلاقات وهوسير الوفود إلى ملوك فارس والحيرة وغسان وحمير.

ولما جاء الإسلام تطورت الدبلوماسية الإسلامية وتطورت أهدافها وأساليبها، واتخذها النبي ﷺ قبل الهجرة من مكة إلى المدينة أسلوباً لنشر الدعوة الإسلامية، وتتجلى هذه الدبلوماسية فيما أرسله النبي ﷺ من كتب وما أوفده من بعوث إلى القبائل العربية، وإلى ملوك الدول المجاورة للدعوة إلى الإسلام.

ويعد عصر الخلفاء الراشدين امتداداً لعهد النبي ﷺ؛ إذ ظلت الدبلوماسية وسيلة للدعوة إلى الإسلام ونشر رسالته، وعقد المعاهدات بين ممثلي الأقطار والمدن الداخلة تحت لواء حكم الخلفاء الراشدين. وكذلك الحال في عصر الدولة الأموية كانت الدبلوماسية لغرض الدخول في الدين الإسلامي أو لتحقيق سلام أو عقد هدنة أو دفع جزية. أما في العصر العباسي فأصبحت الدبلوماسية وسيلة لتبادل العلاقات الودية بين الدول وغيرها، وتعددت أغراض السفارات حتى أصبحت وسيلة لتقوية الصلات التجارية والثقافية وعقد المعاهدات، وحتى تعددت السفارات بين الدول الإسلامية والدولة البيزنطية ودولة الفرنجة والهند والصين.

وأنشأ عبد الرحمن الداخل أول خلفاء المسلمين في الأندلس علاقات دبلوماسية مع دول الفرنجة تأكيداً للروابط الثقافية والسياسية والاجتماعية علاوة على حسن الجوار(١).

وكان السفير يمثل الخليفة ويتكلم باسمه ويفاوض عنه، ويبرم المعاهدات بدلاً منه، وكان السفراء يختارون على أقصى غاية في الدقة بحيث يكون السفير ذكياً، ومتصفاً بصفات خلقية وعقلية، وأن يكون واسع الثقافة، ذا رأي نافذ وحصيف العقل يجعله يستنبط غوامض الأمور ويستشف سرائر القلوب ، ويجب أن يكون فصيحاً ليعجب السامع بحديثه وبسحره وبحلاوة لسانه، ثم ليكون كلامه ممتعاً أنيقاً يوصل إلى الهدف المطلوب.

وقد أدرك المسلمون منذ القدم شرف السفارة وأقدار السفراء، فاختاروهم من الشخصيات المبرزة ذات المكانة الرفيعة في العلم والأدب والرجاحة والحصافة وسرعة البديهة وحسن التصرف، ليكونوا أقدر على تمثيل الخلفاء والأمراء والرؤساء واختير كثير من القضاة والفقهاء والعلماء لأعمال السفارات. كما انتخب من موظفي الدولة كالوزراء والكتاب والأطباء من يصلح لمهام الوفادة.

وكان الخلفاء يرشحون السفراء ويزودونهم بكُتَّاب من أجل مهمتهم.

وقد امتد نشاط السفراء العرب إلى غربي أوربا حين بعث شارلمان

(١) د/ عز الدين فراج ، المرجع السابق ص ٢٣٣ ـ ٢٣٦ .